HNSJ Humanitarian & Natural Sciences Journal
ISSN: (e) 2709-0833
www.hnjournal.net
مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
مجلة علمية محكمة

عنوان البحث

مصر بعيون مغربية

دراسة تاريخية للأوضاع السوسيو ثقافية

رحلة ابن بطوطة أنموذجا

د. ربيع عوادي

[1] تخصص تاريخ العلاقات المغربية المشرقية الافريقية، جامعة سيدي محمد بن عبد الله فاس

تاريخ القبول: 2020/12/23م تاريخ النشر: 2021/01/01م

المستخلص

حرص ابن بطوطة أن يضمن رحلته بمعطيات هامة حول تاريخ مصر من الناحية الاجتماعية والثقافية، لاسيما وأنه قضى بها مدة ليست بالقصيرة وجعلها محور تنقلاته في المشرق العربي، وطريق رابط بين المشرق والمغرب الإسلاميين.

تعرض ابن بطوطة ورحلته إلى موجة عارمة من الانتقادات بدأت منذ سرد حكايات رحلته، سواء في المغرب أو الأندلس من طرف معاصريه وكان على رأسهم ابن خلدون وابن الخطيب، واستمرت هذه الانتقادات مع المستشرقين الذين درسوا رحلته بنوع من الفحص والتدقيق، إلا أن هذه الانتقادات وجب التعامل معها بحيطة وحذر، لما تنطوي عليه نوايا أصحابها من أفكار مسبقة وأحكام جاهزة لا تخلو من إيديولوجيا.

أثناء إقامته بأهم المدن المصرية وخصوصا الإسكندرية والقاهرة كان ابن بطوطة على غرار منهجه في الرحلة يقصد المتصوفة والزوايا لما يوفرانه من مبيت وطعام، ويحرص خلال إقامته هاته على نسج علاقات مع المتصوفة وبعض العلماء الذين تردد على مجالسهم، هذا دون إغفال الطابع الغالب على رحلته عموما والمتمثل في تسجيله مختلف نواحي الحياة الاجتماعية، ورصده لأهم الفئات مبينا علاقتهما مع باقي مكونات المجتمع الأخرى.

ومن هنا عرفت تحفة النظار بالتنوع في الموضوع، يجد فيها كل باحث ضالته من جغرافية وتاريخ وفكر وتصوف وفقه وحياة اجتماعية وغيرها. وبذلك اعتبر ابن بطوطة أعظم الرحالة المسلمين قاطبة، وأوفرهم طوافا في الأفاق، وأكثرهم نشاطا واستيعابا للأخبار، وأشدهم عناية بالتحدث عن الحالة الاجتماعية للبلدان التي تجول فيها.

الكلمات المفتاحية: رحلة ابن بطوطة، مصر، الأوضاع السوسيو ثقافية.

RESEARCH ARTICLE

EGYPT THROUGH MOROCCAN EYES HISTORICAL STUDY OF SOCIO-CULTURAL CONDITIONS

Ibn Battuta's Journey as a Model

Dr. Rabee AOUADI[1]

[1] Specialist in the history of Moroccan-East African relations
University of Sidi Mohamed ben Abdellah Fez
Ra.aouadi@gmail.com

Accepted at 23/12/2020 **Published at 01/01/2021**

Abstract

Ibn Battuta was keen to include his trip with important data on the history of Egypt from the social and cultural point of view, especially since he spent a period of time there and made it the focus of his travels in the Arab East, and a link between the East and the Islamic Maghreb.

Ibn Battuta and his journey were exposed to a massive wave of criticism that began since the stories of his journey were narrated, whether in Morocco or Andalusia, by his contemporaries and on top of them was Ibn Khaldun and Ibn al-Khatib, and these criticisms continued with the orientalists who studied his journey with some kind of examination and scrutiny, but these criticisms must be dealt with carefully, because of the preconceptions and ready-made judgments that the intentions of their owners contain that are not devoid of ideology.

During his stay in the most important Egyptian cities, especially Alexandria and Cairo, Ibn Battuta used to stick to his approach to the journey as he intended the Sufis and the zawiyas for what they provided in terms of accommodation and food. During his stay, he is keen to weave relationships with the Sufis and some scholars who he have attended their councils. This is without neglecting the dominant character of his journey in general, which is his recording of various aspects of social life, and his monitoring for the most important groups, indicating their relationship with the rest of the other components of society.

Hence, the masterpiece of the viewers is known for the diversity of its topics, in which every researcher finds his goal of geography, history, thought, mysticism, jurisprudence, social life and others. Thus, Ibn Battuta considered the greatest of all Muslim travelers, the most circling of them in the horizons, the most active and assimilating of news, and the most concerned with speaking about the social situation of the countries in which he toured.

Key Words: Ibn Battuta's Journey, Egypt, Socio-cultural Conditions.

مقدمة

يهدف هذا البحث إلى دراسة الأوضاع السوسيو ثقافية للمجتمع المصري من خلال رحلة ابن بطوطة، حيث تطرق إلى فئات المجتمع المصري وعاداتهم الدينية والدنيوية، وتحدث كذلك عن الحياة الثقافية فأشار إلى القضاة والعلماء والصلحاء والعلوم المدرسة وأماكن تدريسها، فضلا عن المتصوفة الذين زارهم في زواياهم.

عُرف عن المغاربة تفوقهم في الرحلة وولعهم بالسياحة وارتياد البلاد البعيدة، ولم يكن ابن بطوطة المغربي الوحيد الذي دخل أقاصي البلاد الشرقية ومجاهل إفريقية وهذا ما عبر عنه المقري في كتابه نفح الطيب بقوله: "إن حصر أهل الترحال لا يمكن بوجه ولا بحال، ولا يعلم ذلك على الإحاطة إلا علام الغيوب الشديد المحال" (المقري، 1388هـ/ 1968م). وإنما بقيت أخبار أسفاره بفضل عناية السلطان المريني أبي عنان الذي أمر بجمعها، وإلا لكنا نجهلها كما نجهل غيرها (الفاسي، 1965م)، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته ما يدل على ذلك، حيث التقى قوام الدين السبتي المغربي من مدينة سبتة حينما كان مقيما في إحدى مدن العين (ابن بطوطة، د ت).

يمكن اعتبار رحلة ابن بطوطة حسب محمد الفاسي من الرحلات العامة لكونها جمعت بين الكثير من الأغراض، فهو قد خرج من مدينته طنجة أول الأمر بقصد الحج ثم أعجبته السياحة وارتياد أقاصي البلاد، فكانت رحلته رحلة عامة: حجازية، سياحية، اكتشافية، سفارية، زيارية، علمية (الفاسي، 1965م).

رغم تعرض رحلة ابن بطوطة لتشويه مس النسخة الأصلية، وتضارب بعض المعطيات بسبب تقادمها في ذهنية الرحالة وفقدانه تقاييدها، فإن رحلته في مجملها تبقى أهم مصدر تاريخي خلال القرن 8هـ/ 14م يمكن الاعتماد عليه، ليس فقط لدراسة مصر وحدها أو المغرب وحده وإنما دراسة دول متعددة توزعت على ثلاث قارات؛ آسيا وإفريقيا وأوربا، أو معالجة موضوع واحد، فهي كما سبقت الإشارة إلى ذلك تناولت كل ما وصل إلى ابن بطوطة من مشاهدات وروايات شفوية.

نظرا للاعتبارات السابقة يعتبر ابن بطوطة بحق كما وصفه نيقولا زيادة "شيخ الرحالين، وسيد الرحالين في عصره" (نيقولا، 1962م)، أما زكي محمد حسين فيرى أنه "أعظم الرحالة المسلمين قاطبة" (زكي، 1945م)، وينوه ابن جزي به فيقول: "هو رحال العصر، ومن قال رحال هذه الملة لم يبعد" (ابن بطوطة، د ت)، هذا ويعتبر ابن بطوطة من الشخصيات القليلة التي سال مداد الكثير من الكتابات حولها.

فكيف تعامل ابن بطوطة مع الانتقادات الموجهة إليه؟ وما هي أهم الأحداث التي استغربها منتقدوه؟ وإلى أي حد يمكن الاعتماد على رحلته في دراسة الأوضاع السوسيو ثقافية للمجتمع المصري خلال القرن 8هـ/ 14 م؟ وأين يكمن الحد الفاصل بين صدق رواية ابن بطوطة وعدم شكه في كرامات بعض شيوخ المتصوفة؟

هذه أسئلة ضمن أخرى سنحاول البحث لها عن مختلف المقاربات التي تناولت الموضوع بالدراسة والتحليل.

وقد انقسم البحث إلى العناصر التالية

مقدمة

1. رحلة ابن بطوطة بين التصديق والتشكيك

2- الأوضاع الاجتماعية بمصر من خلال رحلة ابن بطوطة

3- الأوضاع الثقافية بمصر من خلال رحلة ابن بطوطة

خاتمة

1. رحلة ابن بطوطة بين التصديق والتشكيك

أ – التشكيك في رحلة ابن بطوطة

منذ أن تحدث ابن بطوطة في مسجد فاس سنة 754هـ /1303م عن العجائب التي شهدها أو سمعها في رحلته والناس يعلنون أو يسرون شكهم في بعض ما قال إنه شهده أو سمعه، وكان أول هؤلاء المشككين وأعلاهم صوتا ابن خلدون، وهو معاصر له سمع عن رحلته وعن بعض ما تحدث به من عجائب، بل والتقى به شخصيا وكتب عنه وعن رحلاته، واعتبر أن الحكايات التي رواها ابن بطوطة كانت من نسج خياله ولا أساس لها من الصحة، وهي أحداث لا يصدقها ولا يتقبلها العقل البشري، لما تتضمنه من عجائب وغرائب (ابن عبد الله ثالث، 2016-2017).

وهناك مشكك آخر في بعض ما روى ابن بطوطة وهو ابن جزي الذي كان أقرب الناس إليه في شأن تسجيل الرحلة، فعندما بدأ تسجيل أحداثها ذكر صيغا وتعابير تثير الشك والريبة لدى القارئ، يقول ابن جزي في مقدمة الرحلة: "ونقلت معاني كلام الشيخ أبي عبد الله بألفاظ موفية للمقاصد التي قصدها، موضحة للمناحي التي اعتمدها، وربما أوردت لفظة على وصفه، فلم أخل بأصله ولا فرعه، وأوردت جميع ما أورده من الحكايات والأخبار، ولم أتعرض لبحث عن حقيقة ذلك ولا اختبار" (ابن بطوطة، د ت).

ولم يلق ابن بطوطة الشك في حديثه من سامعيه في فاس وحدها، بل نجده يلقى مثل هذا الشك أيضا عند أهل الأندلس حين زارها في رحلته الثانية، وتحدث إلى أهلها بما شاهده في بلاد الشرق البعيدة، فقد التقى ابن بطوطة من أعلام الأندلس الشيخ أبو القاسم بن عاصم الذي ذكر طريق رحلة ابن بطوطة بالقول: "ثم قفل إلى بلد المغرب ودخل جزيرة الأندلس فحكى بها أحوال المشرق، وما استفاد من أهله فكذب"، أما ابن الخطيب فقد نقل في كتابه "الإحاطة في أخبار غرناطة" ما كتبه الشيخ أبو البركات في التعريف بابن بطوطة فقال عنه: "وأحاديثه في الغرابة أبعد من هذا" (الشرقاوي، 1968م).

وبعد ذلك بثلاثة قرون نجد هذا الشك مرة أخرى في تلخيص البيروني للرحلة والذي يقول في مقدمته: "وإنما انتقيت ما كان غريبا غير مشهور، أو مشهور النقل لكن ربما لا يعتمد عليه لغرابته وتسامح المؤرخين في النقل غالبا، فأثبته لكون صاحب الرسالة أثبته"، ثم يضيف بشيء من الصراحة والحزم: "وبعض ما نقله قد يخالف ما ذكره غيره، كما في وصف ما شاهده من عقاقير الهند فإن بعضه مخالف لما ذكره الأطباء في وصفها" (الشرقاوي، 1968م).

ويذكر الزياني في الترجمانة الكبرى أنه عر ض على علماء الهند الذين اجتمع بهم في مكة ما جاء في كتاب ابن بطوطة عن الهند، فأنكرو كثيرا مما قيل من أخبار ملوكهم وأبطلوا قضاءه ومصاهرته، كما يذكر الزياني أن ابن بطوطة لما عاد من رحلته ذكر ما لقيه من الملوك ومصاهرته لملك الهند وولاية القضاء، وأنه قد حصل بذلك على أموال عظيمة زيفه الناس وكذبوه (الزياني، 1412هـ/ 1991م).

ووصفا أحمد العوامري بك ومحمد جاد الولي بك في مقدمة "مهذب الرحلة" بعض ما رواه ابن بطوطة بأنه "من الخرافة والسخف بمكان" (أحمد و محمد أحمد، 1934م)، إلا أنهما لم يذكرا تحديدا أو تمثيلا لهذا الذي وصفاه بأنه من الخرافة والسخف بمكان .

ونجد شوقي ضيف أكثر صراحة في تجريح ابن بطوطة ونسبته إلى الكذب، فهو يرى أن ما ذكره من قدرة السحرة في الهند والصين على الأعمال العجيبة خرافة، ويصرح بأن ابن بطوطة أودع في رحلته من الخرافات ما يدل على مبالغاته الكثيرة وأن الواقع عنده ضرب من الخيال (الشرقاوي، 1968م).

ويشير كراتشكوفسكي إلى أن فترة التشكك بلغت غايتها في موقف النقد المتطرف الذي وقفه "يول" " Yule" مع ابن بطوطة (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م).

ومما أثار شك المرتابين في عصرنا الحاضر حديث ابن بطوطة عن البلاد التي سماها "طوالس" والتي تقع بعد بلاد البلغار والصين، وفي هذا الصدد يقول كراتشكوفسكي: "مما لا شك فيه أن وصفه لأرض الظلمات الواقعة خلف أراضي بلغار الفلجا، إنما يرجع فيه إلى فكرة غير موثوق بها أو إلى مصدر أدبي أساء فهم روايته، كما أن وصفه لبلاد طوالس الواقعة في مكان ما من كوشين – صين cochin – china يضم أساطير سمعهما عن بلاد أخرى حتى اختلط الوصف لديه اختلاطا كليا" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م)، فتعليق كراتشكوفسكي هذا لا يعني الشك في زيارة الرحالة أو وصفه لها، بل كل ما يعنيه أنه خلط مشاهدته في تلك البلاد ببعض الأساطير التي سمعها عن بلاد أخرى.

ب – مصدر الشكوك في رحلة ابن بطوطة

نفهم من بعض هذه الشكوك التي أوردناها أنها قامت في نفوس الناس عقب دخول ابن بطوطة مدينة فاس، وبدء حديثه عن الرحلة بأمر من السلطان أبي عنان فزاد حقد الناس وكرههم له، وتأججت الغيرة في نفوسهم من تلك المكانة التي نالها عند السلطان حتى جعلته يطلب إليه وهو في رحلته لم ينته منها بعد أن يأتي إلى تونس، حيث أكرمه السلطان وأمره بالجلوس في المسجد ليحدث الناس بما شاهد، ثم أمر السلطان كاتب ديوانه ابن جزي بأن يكتب ويسجل ما يمليه الرحالة، هذه المكانة التي تزيد من حقد الخصوم كفيلة بأن تجعل أصحابها يثيرون حول ابن بطوطة زوبعة من الشك (الشرقاوي، 1968م).

تتحدث الرحلة عن بلدان بعيدة يجهل السامعون عنها كل شيء، فلا يعرفون طبيعتها وعادات أهلها وأنظمة الحكم فيها، ومن هنا كان استغرابهم لما يسمعون وشكهم في وجوده، إلا أن الموضوعية تقتضي التريث والتأني فقد ورد في قول فارس بن وردار لابن خلدون: "إياك أن تستنكر مثل هذا من أحوال الدول بما أنك لم تره" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م).

إلا أن امتلاء الرحلة بالأخبار والحكايات التي وُصفت بالوهم والمبالغة والأسطورة والخرافة لا تصمد في مجملها للمناقشة والفكر الناقد، وكان ابن خلدون موضوعيا حينما حدد منهاج التعامل مع هذا النمط من الأخبار؛ فكل ما دخل في نطاق الإمكان قبله وما خرج عنه رفضه.

ويعود الاضطراب في الرواية والتضارب في الأخبار إلى أن ابن بطوطة كان واقعا تحت تأثير ما كان شائعا في تلك المجتمعات التي عاش فيها وخبر أمورها من الاعتقادات الشعبية التي وقع فيها من جراء جهله بلغات البلدان التي زارها قبل إلمامه باللغتين الفارسية والتركية (الشاهدي، 1990م).

وإلى جانب ذلك يبدو أسلوب ابن جزي ثقيلا يغلب عليه الحشو والتكلف، فهو قد جمع قصص ابن بطوطة وزوقها بصورة تجعلها أقرب إلى النصوص الأدبية، واقتطف من أشعار مختلف الشعراء أحيانا، دون مناسبة تستوجب وبلا أدنى صلة تربطها بموضوع كلامه، وغرضه من هذا أن يكسب كلام ابن بطوطة حيوية أكثر، وأغلب الظن أن ابن جزي كما يقول كراتشكوفسكي "قد لجأ إلى الطريقة القديمة في تضمين الأوصاف المأخوذة من المؤلفين السابقين في سياق عرضه، دون أن يهتم بالإشارة إلى أسمائهم"

(كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م)، لذلك فإن دور ابن جزي في تحرير الرحلة كان له أثرا بالغا، فقد اجتهد ليضفي على المصنف طابعا فنيا متماسكا لعله لم يعرف في الأصل إطلاقا، وما يتداوله الناس باسم الرحلة ليس إلا تلخيصا لها بدليل ما صرح به ابن جزي نفسه حين قال: "انتهى ما لخصته" (ابن بطوطة، د ت).

ومن الواضح أن ابن بطوطة كان يعتمد على الذاكرة في سرد أحداث الرحلة وذكر تفاصيلها، فلم تكن له مذكرات يرجع إليها ليتذكر بها الظروف والأحوال والأشخاص والمواقف، فكان يصرح بعجزه عن تذكر أسماء الأماكن والأشخاص، فضلا عن ترتيب هذه الأماكن، وتذكر مواقعها في الطريق التي مر منها، وسواء كان هذا راجع إلى ضياع المذكرات منه كما أشار إلى ذلك وهو يتحدث عما رآه مقيدا على قبر الإمام البخاري، حين وقف على قبره ببخارى فقال: "وكنت قيدت من ذلك كثيرا، وضاع مني في جملة ما ضاع لي، لما سلبني كفار الهند في البحر" (ابن بطوطة، د ت)، أو راجع إلى أن ابن بطوطة لم يدون مذكرات منظمة في الأصل لأنه "لم يكن يهدف لإخراج صورة متكاملة الجوانب لوصف أسفاره بل اكتفى بأن يقص على سامعيه أحداثا معينة وقطعا متفرقة منها" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م).

هذا ولم يكن ابن جزي على معرفة بالبلاد التي تحدث عنها ابن بطوطة، لذا فليس غريبا أن يقع في أخطاء عديدة عندما حاول أن يجمع بين هذه القصص المتفرقة في وحدة متماسكة، ويصدق هذا بصورة خاصة على إفريقيا الشمالية عندما أخذ ابن بطوطة لأول مرة طريقه إلى مصر، فقرائن الأحوال تشير إلى أن ابن بطوطة كان قد نسي وصف طريقه تماما، وذلك لبعد الزمن الذي ينيف على ربع قرن، لذلك كان وصفه لهذا الطريق مختصرا للغاية لدى مقارنته ببقية أوصاف الرحلة.

ج – دفاع ابن بطوطة عن رحلته وأمانته فيها

عمل ابن بطوطة بنفسه على أن يبرئ رحلته من كل اتهام وأن يبعد عنها كل شبهة، إذ اختار منهجا يدل على التحري والتثبت من كل ما يرويه، والتوقف في كثير مما قد نسيه أو شك في صحته، وأعلن شكه في كثير من الأحوال: إما في صحة إسم، أو خبر أو غير ذلك.

ويمكننا أن نجد أمثلة كثيرة لهذا الأسلوب العلمي النزيه البعيد عن كل ادعاء واختلاق، فلقد رأيناه يستعمل عبارات التأكيد حينما يكون متأكدا تماما من الخبر الذي يسوقه لأنه أحس باستغراب الناس لما أتى به، وشكهم في إمكان وجوده مثل: "وأذكر من أخباره أهم ما حضرته وشاهدته وعاينته، ويعلم الله تعالى صدق ما أقول وكفى به شهيدا، مع أن الذي أحكيه مستفيض متواتر" (ابن بطوطة، د ت)، وقال في أكثر من مرة رأيت ذلك كله وشاهدته (ابن بطوطة، د ت).

أو يستعمل عبارات تفيد النفي إما لعلاقته هو بالحدث، أو لوقوع ذلك الحدث في حد ذاته، ففي حديثه عن طريقة سلام الخاتون على أخيها ولي عهد بالقسطنطينة يقول أنه "أتى بخباء حرير فدخلا فيه، فلا أعلم كيفية سلامها" (ابن بطوطة، د ت).

هكذا عبر ابن بطوطة في كثير من الأحيان عن عدم معرفته بأسماء الأشخاص والأماكن، واعترف أحيانا بنسيانه لما سمعه أو حفظه، بينما اكتفى في أحيان أخرى بالإشارة إلى وساطة النقل والرواية مثلما فعل في تحديد المسافة الفاصلة بين صين كلان وسد ياجوج وماجوج أو استعماله عبارة "وحدثني من أثق به".

كما أن ابن بطوطة لم يكن متملقا لأبي عنان وهو يتحدث أمامه عن ملك الهند الذي أخبره ابن بطوطة أنه من بلاد المغرب لما سأله عن بلاده، فقال ملك الهند بلاد عبد المومن؟ فأجابه ابن بطوطة بنعم مع أن المغرب كان آنذاك تحت حكم المرينين، لكن أمانته في النقل جعلته يروي الحديث كما جرى تماما.

د – المصدقين لرحلة ابن بطوطة

نرى من الجحود وصف ابن بطوطة بالكذب بسبب الشكوك والأخطاء التي تضمنتها رحلته، فقد ظل الرجل يرحل ويطوف في الأرض في رحلاته الثلاث ما يقارب الثلاثين سنة، ثم فقد في بلاد الهند جميع أمواله ومتاعه وأوراقه، ولما استدعاه السلطان أبو عنان إلى فاس ليملي أخبار رحلاته تلك كان يمليها من ذاكرته وحفظه.

إذا وضعنا ذلك في الاعتبار كان كافيا جدا في الشفاعة له عن تلك الأخطاء، وعن هذا الخلط (الشرقاوي، 1968م)، فابن جزي كاتب الرحلة نفسه ورغم موقفه المشكك منها فإنه عاد ليستدرك ما قال، وكأنه يلتمس العذر لابن بطوطة في الغرائب التي تحدث بها بالقول: "على أنه [ابن بطوطة] سلك في إسناد صحاحها أقوم المسالك، وخرج عن عهدة سائرها بما يشعر من الألفاظ بذلك" (ابن بطوطة، د ت)، أي أن ما تصدقه النفس قد رواه ابن بطوطة، وسلك في روايته أقوم الطرق، وما يثير الشك تحدث به على طريقة "والعهدة على الراوي" (الشرقاوي، 1968م).

ويزكي ما ورد في رحلة ابن بطوطة أن العارفين برحلة البندقي "ماركو بولو" إلى الصين يجدون حديث ابن بطوطة عنها مطابقا لحديثه، وقد زار "ماركو بولو" الصين قبل ابن بطوطة بسنوات قليلة وأقام فيها 17 سنة، وابن بطوطة وابن جزي لم يقرأ أي منهما رحلته حتى يتأثرا بها وينقلا عنها.

وما يصدق أيضا كلام ابن بطوطة ويضعه بعيدا عن مواضع الشك والريبة، أن رحالة إيطالي آخر يدعى "فرسكو بالدي" "FRESCO BALDI" زار مصر سنة 1384م؛ أي بعد ابن بطوطة بنحو 60 عاما، جاءت أوصافه والأرقام التي أوردها عن السكان وعدد المراكب في النيل والمتاجر والمساجد كما دونها ابن بطوطة أو قريبة منه (الشرقاوي، 1968م).

كما يشهد "كراتشكوفسكي" لابن بطوطة بالصدق والأمانة والتوثيق فيقول: "إنه لا يستغني عن الرجوع إليه أي باحث يود الخوض في تاريخ الأوردو الذهبي وآسيا الوسطى، والذي رغما من هذا تقف رواياته عن الصين والهند في مستوى واحد مع أسفار السندباد وعجائب الهند" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م)، ويصفه كراتشكوفسكي بأنه كان آخر جغرافي عالمي من الناحية العلمية فقد "جاوز تجواله مقدار مائة وخمس وسبعون ألف ميل، فهو بهذا يعد منافسا خطيرا لمعاصره الأكبر منه سنا ماركو بولو البندقي" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م).

بل يرى "كراتشكوفسكي" أن وصف ابن بطوطة لخط سير رحلته أدعى إلى الثقة من "ماركو بولو"، وأنه أي ابن بطوطة "كان لديه إحساس ذاتي بظروف حضارة العالم الذي يصفه أكثر مما كان لدى البندقي"، ويضيف "كلما تعرضت الأجزاء المختلفة من وصف رحلته لدراسة دقيقة مفصلة زادت الثقة في صدق روايته يوما عن آخر" (كراتشكوفسكي، 1408هـ/ 1987م).

في حين كتب الرحالة الألماني "سيتزن" عنه فقال: "أي سائح أوربي يمكنه أن يفتخر بأنه قضى من الزمان ما قضاه ابن بطوطة في البحث لكشف المجهول من أحوال هذا العدد الكثير من البلدان السحيقة، وتحمل من مشاق الأسفار ما تحمله بصبر وثبات وشجاعة، بل أي أمة أوربية كان يمكنها منذ 5 قرون أن تجد من أبنائها من يجوب البلاد الأجنبية، وفيه من الاستقلال بالحكم، والقدرة على الملاحظة والدقة في الكتابة ما لهذا الرحالة العظيم" (الشرقاوي، 1968م).

هذا وقد وصفه المستشرق الإيطالي "دوزي" بالرحالة الأمين، ويؤكد المستشرق "جب" على أن رحلة ابن بطوطة هي رحلة حقيقية، في حين يرى حسن حسني عبد الوهاب أن ابن بطوطة أتى بالصحيح الموثوق به (شاهدي ، 40)، ويقف زكي محمد حسن

إلى جانب الموثقين لابن بطوطة المدافعين عنه، وكذلك فعل الدكتور نقولا زيادة، فلا يميل إلى جانب الشك والتكذيب (الشرقاوي، 1968م).

2– الأوضاع الاجتماعية بمصر من خلال رحلة ابن بطوطة

أ. فئات المجتمع المصري

يستوجب الحديث عن التاريخ الاجتماعي لمصر التكلم عن فئات هذا المجتمع، وكيف مارست حياتها اليومية داخل المجتمع بما تسمح به رحلة ابن بطوطة، وبعد تقصي كلامه يبدوا أن هذا المجتمع يتكون بالإضافة إلى فئة الحكام، من فئات اجتماعية أخرى شكل القضاة والعلماء والصالحين والتجار والعامة ركائزها الأساسية.

تكونت فئة الحكام من الملك الذي كان في قمة الهرم ثم نائب الملك، وبعده كبار الأمراء والوزراء فناظر الجيش والولاة.

وشكل القضاة فئة قليلة، قد ينحصر عددهم في بعض المدن في قاضي واحد، وهي فئة متنورة يذكرهم ابن بطوطة بخير باستثناء قاضي دمنهور فخر الدين بن مسكين الذي أعطى رشوة كبيرة من أجل الحصول على قضاء الإسكندرية، وتجاوز عدد من ذكر أسمائهم 16 قاضيا، وكان قاضي الحنفية شمس الدين الحريري شديدة السطوة لا تأخذه في الله لومة لائم، وكان الأمراء يخافونه، وبلغ من مكانة هذا الشيخ أن تحدث السلطان يوما إلى جلسائه فقال: "إني لا أخاف إلا شمس الدين الحريري" (ابن بطوطة، د ت).

والفئة القريبة من القضاة من حيث الصلاح والعلم هي فئة الفقهاء والصالحين، وقد أحصى ابن بطوطة أكثر من 16 عالما، مهمتهم في الغالب التدريس رغم عدم تصريحه بذلك إلا مع ثلاثة منهم، وهم: الفقيه بهاء الدين عبد العزيز المدرس بمدرسة المالكية بمدينة أسيوط، والفقيه مجد الدين بن حرمي وكيل بيت المال والمدرس بقبة الإمام الشافعي، والفقيه قوام الدين الكرماني الذي يدرس بجامع الأزهر فنون العلم لجماعة من الفقهاء والقراء الملازمين له.

وذكر من الصالحين أكثر من 29 صالحا يمارسون التعبد في زواياهم، ولم يذكر عنهم أنهم يدرسون العلم بل صرح بعكس ذلك، فبعضهم يعيش وحيدا مثل أبي عبد الله المرشدي بالقرب من الإسكندرية وهو منفرد منقطع بمنية بني مرشد لا خادم ولا صاحب له، ويطنب ابن بطوطة في رفع درجتهم وكونهم مكاشفين، مثل الشيخ الذي قال عنه بأنه ينفق من الكون ويعطي كل من يزوره ما يرجوه من الفاكهة في غير إبانها، وقد زاره الملك الناصر عدة مرات (ابن بطوطة، د ت).

هذا ولم يظهر التجار إلا في حادثة الإسكندرية عندما حصل شجار بينهم وبين تجار النصارى، ويبدو أن تجار مصر كانوا أغنياء حتى أن الواحد منهم يملك ما يجند به المائة والمائتين لإخماد الفتن والدفاع عن المدينة، ولأهل الإسكندرية كذلك قاعات للسلام مثل التي يمتلكها تاجر القدر.

ومن فئة العامة التي ذكرها ابن بطوطة وأظهر تأثيرها حتى على السلطان في تغيير قراره؛ فئة الحرافيش وهم طائفة كبيرة أهل صلابة وجاه ودعارة، حيث كان الأمير "طشط" يحسن إليهم، فلما سجنه الملك الناصر مرتين اجتمعوا حول القصر ونادوا الملك بالأعرج، وطالبوه بأن يطلق سراح الأمير فأطلقه.

يظهر هذا الحدث مدى الارتباط الموجود بين فئات المجتمع؛ فقد كان مجتمعا متناغما، ففئة العامة مرتبطة بالأمراء لإحسان هؤلاء إليهم، ومرتبطة بالعلماء لتعليمهم أولادها، ومرتبطة بالصلحاء لتذكيرها لهم بالله وتوفرهم على زوايا تطعم الطعام، وكذلك ارتباط

شيوخ الزوايا بالملوك والأمراء لأنهم كانوا يزورون الزوايا وشيوخها، ولا شك أن هذا التعاون المادي والمعنوي كان حاصلا بين كل الأطراف (الحمدي، 1990م).

ومن فئة العامة التي ذكرها ابن بطوطة فئة السقائون، حيث يشير إلى تواجد حوالي 12 ألف سقاء في القاهرة يحملون الماء إلى البيوت على الجمال، وأن فيها 30 ألف مكاري يحملون الناس والأثقال على الحمير.

ويصف ابن بطوطة القاهرة بأوصاف كانت وما تزال صادقة عليها وعلى أهلها، منها أن الضعيف والقادر يستطيع أن يعيش فيها، وأنها مجمع الوارد والصادر، ومن الناس مضريين وعرب وغيرهم أيضا، وأنك تجد فيها العلماء الكبار والجهلة الكبار، والجد والهزل، والحليم والسفيه، والشريف والمشروف، والنبيه والوضيع، تموج كالبحر بساكنتها، وتكاد أن تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، وهي كما قال متجددة الشباب (الشرقاوي، 1968م).

ب- عادات المجتمع المصري

ذكر ابن بطوطة بعض عادات المجتمع المصري؛ منها العادات الدينية، وهي إما متعلقة بالتصوف والمتصوفين أو بالقضاة وسائر الناس، وليس غريبا أن يأتي ابن بطوطة بتفاصيل عن عادة المتصوفة لأنه غالبا ما كان يستقر بزواياهم خلال رحلته.

ومن أشهر العادات الدينية عند غير المتصوفة من القضاة والعامة يوم "الركبة" ويوم "المحمل"، فيوم الركبة من المظاهر الاجتماعية التي سجلها ابن بطوطة والتي كان المصريون يحرصون عليها في الريف والمدن حرصا شديدا، ومعناه ارتقاب هلال رمضان حيث يجتمع القضاة والفقهاء بعد صلاة العصر يوم التاسع والعشرون شوال بدار القاضي، فيركبون جميعا ومن ورائهم سكان المدينة إلى موضع مرتفع خارج المدينة ليراقبوا الهلال، ويعودون بعد صلاة المغرب إلى دار القاضي وبأيديهم الشموع ومنه يتفرقون بعد أن يهنئ بعضهم البعض بشهر رمضان، ويتكرر هذا كل سنة (ابن بطوطة، د ت).

ويوم "المحمل" أي الخروج للحج يوما من أبهج أيام القاهرة الذي يحتفل به الشعب والحكام، يسميه ابن بطوطة يوم "دوران الجمل" يجتمع فيه القضاة الأربعة ووكيل بيت المال والمحتسب وأعلام الفقهاء وكبار الرؤساء أو رجال الدولة، ويتوجهون إلى قلعة الملك الناصر، فيخرج إليهم المحمل على جمل وأمامه أمير الحج ومعه العسكر والسقائون على جمالهم، ثم يطوفون بالمحمل في أنحاء القاهرة ويكون ذلك في رجب (الحمدي، 1990م).

ومن العادات الدينية زيارة القبور، فأهل القاهرة يخرجون كل ليلة الجمعة إلى القبور هم ونسائهم وأولادهم للمبيت هناك، وعند زيارة الناس للمقابر يقام سوق يخرج له البائعون أصناف مختلفة من السلع والماكولات وبخاصة ليلة النصف من شعبان.

وفي الإسكندرية يخرج الناس لزيارة القبور يوم الجمعة عندما يفتح الباب الأخضر من أبوابها الأربعة، كما لهم مزارات يقصدونها للتبرك وقضاء الحاجات، وبخاصة مسجد الحسين بالقاهرة، ولمصر كذلك مواسم خاصة كالمزار المعروف بشطا خارج دمياط، وتحدث أيضا عن إيمانهم بالفأل والتنجيم وأثرهما في المجتمع.

ثم هناك بعض العادات الاجتماعية غير الدينية، منها عادات الخروج من مدينة دمياط، فلا يستطيع أحد أن يبرحها إلا بإذن من حاكمها، وكبار السن يحملون بطاقة موقعة من الحاكم يبرزونها لحراس المدينة، وغيره من أهل دمياط يطبع على ذراعهم إذن الدخول (الشرقاوي، 1968م).

ومن عادات سكانها الذين لهم دور على النيل، أن يصنعوا سلما ينزل إلى ماء النهر فيسقون منه بالدلاء، ومن عادات أهل

القاهرة النشاط "فشبابها يجد على طول العهدة" (ابن بطوطة، د ت)، ولهم على ضفة النيل مكان للنزهة به بساتين حسنة، وهم ذوو طرب وسرور ولهو، وشهد ابن بطوطة من ذلك ما صنعه أهلها من لهو وفرح عند شفاء الملك الناصر من كسر كان بيده، فزينوا الأسواق والمحلات وعلقوا عليها أثواب الحرير والرايات وبقوا على ذلك أياما (الحمدي، 1990م).

ولم يتعرض ابن بطوطة لعادة اللباس إلا في مرات قليلة حين تحدث عن الشيخ قوام الدين الكرماني، الذي كان يلبس عباءة من صوف خشنة وعمامة صوف سوداء، وكذلك عند الحديث عن عمامة قاضي الإسكندرية عماد الدين الكندي الذي اتخذ عمامة خرقت المعتاد في الكبر، كادت تملأ المحراب حين جلس في صدره، وثالث المرات تحدث عن عادات أهل عيذاب في اللباس وغيره؛ فهم يلتحفون ملاحف صفراء ويشدون على رؤوسهم عصائب يكون عرض العصابة أصبعا، يشربون ألبان الإبل ويركبون المهاري ويسمونها الصهب، ولا يورثون البنات (ابن بطوطة، د ت).

ومن عادات أهل "المنيا" بصعيد مصر أن الناس يستحمون عرايا دخل الحمام ولا يتدثرون بشيء، ويظهر بعضهم على بعض بهذا الحال، فعظم عليه ذلك وتحدث فيه إلى حاكم المدينة الذي أحضر مستأجري الحمامات وأخذ عليهم المواثيق بألا يحدث ذلك في حماماتهم (الشرقاوي، 1968م).

تناول ابن بطوطة عادات فئات المجتمع المصري بالوصف والتمحيص، وإن كان قد فصّل في عادات بعض الفئات واكتفى في ذكر عادات الفئات الأخرى بما صادفه أو سأل عنه، ودون كل ذلك في رحلته، وبذلك يكون قد أورد قسطا من عادات المجتمع المصري في القرن 8هـ /14م تعين الدارسين على استجلاء التاريخ الاجتماعي لهذا البلد.

3- الأوضاع الثقافية بمصر من خلال رحلة ابن بطوطة

أ – العلماء والقضاة

تدل إشارة ابن بطوطة إلى القضاة والعلماء والصلحاء وكثرتهم بمصر على وفرة العاملين في قطاع التعليم، لكن غياب التفصيل في التأليف والتعليم لا يسمح بالجزم في ذلك، فابن بطوطة لم يشير إلى تأليف هؤلاء العلماء وإلى تعليمهم باستثناء الشيخ قوام الدين الكرماني بالقاهرة، حيث ذكر أنه يدرس فنون العلم بالمسجد الأزهر، والتقى ابن بطوطة بعدد غير قليل من العلماء في الإسكندرية؛ منهم قاضيها عماد الدين الكندي وفخر الدين الريقي، وحينما زار الصعيد لقي العالم الكبير ابن دقيق العيد الذي نعرف مكانته في العلم وقوة خلقه وشجاعته في الحق، وقد لقيه في بلدة قوص قبل أن يتركها إلى القاهرة وسمع منه خطبة الجمعة وأثنى عليه ثناء كثيرا.

ولإبراز أهمية مصر من الناحية الثقافية، يجدر بنا تسجيل بعض المعلومات عن مؤسساتها العلمية، فابن بطوطة يقول عن كثرة مدارسها: "وأما المدارس بمصر [القاهرة]، فلا يحيط أحد بحصرها لكثرتها" (ابن بطوطة، د ت).

كما أن المقريزي ذكر في كتابه الخطط أسماء العديد من المدارس والجوامع والزوايا، ففي القاهرة وحدها ثم إحصاء حوالي سبعين مدرسة وتسعين جامعا وتسعة عشر مسجدا وخمس وعشرون زاوية، فهي تعد بذلك عاصمة سياسية وعلمية ببلاد مصر بلا منازع، خاصة وأنها تحتضن جامع الأزهر الشريف الذي يعد من أهم المراكز الثقافية الإسلامية في العالم الإسلامي برمته (الضعيفي، 2004).

هذا وقد كانت مصر من أهم بلدان العالم الإسلامي استقطابا للعلماء، حيث احتضنت العديد من العلماء، منهم شيخ من المغرب قدم الإسكندرية بعد أن أقام في الحجاز فتولى القضاء فيها لعلمه وفضله وزهده على الرغم من كبار الشيوخ فيها

ومعارضتهم، ونجد من قضاة الإسكندرية شيخا أيضا من فاس هو الشيخ أبو عبد الله الفاسي كانت له فيها منزلة كريمة، ونجد في ريف مصر نائبا للقاضي ويتعلق الأمر بالشيخ أبو القاسم بن بنون المالكي التونسي نائب قاضي مدينة المحلة الكبرى (ابن بطوطة، د ت).

وفي القاهرة نجد علماء كبار من العراق منهم شمس الدين الأصبهاني وجمال الدين الحويزائي وقوام الدين الكرماني، ونجد علماء من المغرب منهم الشيخ ركن الدين بن القويع التونسي كان من الأئمة في المعقولات، وآخر من صفاقس هو الشيخ برهان الدين الصفاقسي، وعالما من الأندلس هو الشيخ أثير الدين أبو حيان محمد بن يوسف الغرناطي، وكان أعلم العلماء في النحو، ونجد في مدينة "إسنا" بصعيد مصر قاضيا كان وطنه الصغير المغرب وهو الشيخ الصالح عبد الواحد المكناسي (ابن بطوطة، د ت).

بل نجد هذه الروابط الثقافية شاملة لما هو أوسع من البلاد العربية، فنجده يذكر من كبار العلماء بالقاهرة شيخ الشيوخ القراء بديار مصر الشيخ مجد الدين الأقصرائي من تركيا يسكن قرية "سرياقس"، في حين تندر مغادرة العلماء المصريين إلى دول أخرى حيث لم يذكر ابن بطوطة إلا الشيخ أبو علي عمر بن القداح الهواري الذي كان قاضيا في تونس (ابن بطوطة، د ت).

ب – المتصوفة

يطول الحديث إذا حاولنا الإتيان على ذكر كل الأضرحة التي قصدها ابن بطوطة، والأولياء الذين لقيهم في جميع الأصقاع التي مر بها، لذلك سنكتفي بذكر بعضها، فابن بطوطة عندما وصل إلى مصر ودخل الإسكندرية قصد الأولياء الموجودين فيها، فزار الشيخ الصالح العابد عبد الله المرشدي، وهو فيما يقول عنه من كبار الأولياء المكاشفين، المنقطع في منية "بني مرشد" في زاوية لا يخدمه فيها خادم ولا يصاحبه بها رفيق، ويزوره الأمراء والوزراء ويأتيه الوفود من طوائف الناس في كل يوم، فيطعم الطعام، وكل واحد منهم ينوي أن يأكل عنده طعاما أو فاكهة أو حلوى يأتي لكل واحد بما نواه، وربما كان ذلك في غير إبانه، كما قصده الملك الناصر مرات متعددة، ولما زاره ابن بطوطة قدمه للصلاة به ولما أراد النوم قال له: إصعد إلى سطح الزاوية فنم هناك، ثم يضيف قائلا: "رأيت ليلتي تلك، وأنا نائم بسطح الزاوية، كأنني على جناح طائر عظيم يطير بي في سمت القبلة يتيامن ثم يشرق، ثم يذهب في ناحية الجنوب، ثم يبعد الطيران في ناحية الشرق، وينزل في أرض مظلمة خضراء ويتركني بها، فعجبت من هذه الرؤية وقلت في نفسي إن كاشفني الشيخ برؤياي فهو كما يُحكى عنه، فلما غدوت لصلاة الصبح قدمني إماما لها....ثم سبحت سبحة الضحى، ودعاني وكاشفني برؤياي فقصصتها عليه، فقال: سوف تحج وتزور النبي صلى الله عليه وسلم، وتجول بلاد اليمن والعراق وبلاد الترك وتبقى بها مدة طويلة، وستلقى بها أخي دلشاد الهندي، ويخلصك من شدة تقع فيها" (ابن بطوطة، د ت).

كما زار الإمام الزاهد العالم الورع الخاشع برهان الدين الأعرج الذي كان من كبار الزهاد وأفراد العباد، وأقام في ضيافته ثلاثا، وهو الذي كاشفه بما سينتهي إليه أمره فقال ابن بطوطة في ذلك: "دخلت عليه [برهان الدين الأعرج] يوما فقال لي: أراك تحب السياحة والجولان في البلاد، فقلت له نعم إني أحب ذلك، ولم يكن حينئذ بخاطري التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين، فقال لابد إن شاء الله من زيارة أخي فريد الدين بالهند، وأخي ركن الدين زكرياء بالسند، وأخي برهان الدين بالصين، فإذا بلغتهم فأبلغهم مني السلام، فتعجبت من قوله وألقي في روعي التوجه إلى تلك البلاد، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم وأبلغتهم سلامه" (ابن بطوطة، د ت).

وهكذا كانت رحلة ابن بطوطة تحقيقا لمكاشفة هذا المتصوف، واستجابة لرغبة دفينة في نفس ابن بطوطة كشف عنها الصوفي

.

والتقى ابن بطوطة كذلك مع الشريف أبي محمد الحسيني الذي كاشفه بكونه لن يتيسر له الحج في سنته تلك فكان كما قال. وقصد ابن بطوطة وهو في طريقه إلى الحجاز مدينة عيذاب، وقبل دخولها مر بحميثرا، ونزل فيها حيث زار قبر الشيخ أبي الحسن الشاذلي. وعند حديثه عن دمياط ذكر أن بها مسجدا وزاوية لقي فيها شيخها المعروف بابن قفل و"حضر عنده ليلة الجمعة، ومعه جماعة من الفقراء والفضلاء، المتعبدين الأخيار، قطعوا ليلتهم صلاة وقراءة وذكرا" (ابن بطوطة، د ت).

وقد اعتنى ابن بطوطة في أحاديثه عن ريف مصر بالطرق الصوفية، وطريقة الشاذلية بوجه خاص التي كانت مما يشغل الناس إلى حد كبير، فهو ترجم للشيخ أبي الحسن الشاذلي، وسجل "حزب البحر" كاملا –أحد أوراد الشاذلية– الذي كان يقرأه الشيخ وتلامذته في كل يوم عندما يركب ويركبون البحر، وكان يحج كل سنة قبل حلول رجب فيقيم بمكة إلى موسم الحج، ثم يقول ابن بطوطة: إنه سمع من الشيخ ياقوت الحبشي تلميذ أبي العباس المرسي، وهذا الأخير كان تلميذ الشاذلي: أن الشيخ الشاذلي خرج إلى الحج كعادته في آخر سنة له، وقبل أن يرحل قال لخادمه: احمل فأسا وقفة وحنوطا، فعجب الخادم وسأله عن سر ذلك، فقال الشيخ عندما نصل حميثرا سوف تعرف، وسار الشيخ وخادمه حتى وصلا من صحراء مصر إلى عين ماء، اغتسل فيها الشيخ وصلى ركعتين خرجت روحه في السجدة الأخيرة منهما، وزار ابن بطوطة هذا الموقع الذي مات ودفن فيه.

وذكر ابن بطوطة ما يفيد أن طريقة الشاذلية كانت منتشرة أيضا في صعيد مصر، فيقرأ أهله الأوراد المنسوبة لشيخها بعد صلاة الصبح من كل يوم.

ومن الطرق الصوفية المنتشرة في مصر طريقة القرندرية التي تنتسب للشيخ جمال الدين الصاوي، وهي طائفة يكثر أتباعها في دمياط وما حولها وهم يحلقون لحاهم وحواجبهم، ويذكر ابن بطوطة في سبب ذلك قصة لطيفة حدثت مع شيخهم جمال الدين، فقد كانت هناك امرأة تعلقت بالشيخ وكانت ترسل إليه الرسل والمكاتيب، وتقف في طريقه تدعوه لنفسها وهو يأبى، فأقدمت المرأة على حيلة أوقفت في طريقه سيدة عجوز تصدت له ترجوه أن يقرأ لها خطابا جاءها من ولدها، ووقف الشيخ ليقرأه فقالت له لو أحسنت وتفضلت فدخلت داري وفيها زوجة ابني حتى تسمع خطابه، فلما دخل الشيخ البيت وكان بيت المرأة التي تطارده خرجت إليه ومعها جواريها فأمسكن به، وراودته المرأة عن نفسها وألحت عليه إلحاحا شديدا، فأقدم هو الآخر على حيلة وطلب منها أن تدخله إلى مكان منعزل وتقدم له الماء، وكان معه موسى جديدة فأخرج الماء وحلق بالموسى لحيته وحاجبيه ثم خرج، فلما وقع بصرها عليه أنكرت هيئته وقبح في عينها وجهه وفعله أيضا، ثم أمرته أن يخرج فخرج وقد عصمه الله، وقد صار حلق الوجه والحاجبين سمة لأتباع طريقته وسالكيها (الشرقاوي، 1968م).

وإذا أمكن القول بأن زيارة الأولياء أحياء وأمواتا والتبرك بهم كانت الدافع الأساسي الذي دفع ابن بطوطة في مغامراته وطوافه بمشارق الأرض ومغاربها، فإن إقامته في كثير من الأحيان في الزوايا راجع لكون هاته الأخيرة تقدم الطعام والمأوى، وبالتالي كانت الزوايا مؤسسات اجتماعية ودينية (شقور، 1996).

والزوايا التي أقام بها ابن بطوطة في مصر وتحدث عنها في رحلته كثيرة جدا حيث يقول: "وأما الزوايا فكثيرة، وهم يسمونها الخوانق واحدتها خانقة، والأمراء بمصر يتنافسون في بناء الزوايا، وكل زاوية بمصر معينة لطائفة من الفقراء، وأكثرهم الأعاجم، وهم أهل أدب ومعرفة بطريقة التصوف ولكل زاوية شيخ وحارس، وترتيب أمورهم عجيب" (ابن بطوطة، د ت).

ثم بعد ذلك أورد وصفا لعاداتهم في الطعام وغيره بالقول، ومن طريف عاداتهم "مع القادم أنه يأتي باب الزاوية فيقف به مشدود الوسط، وعلى كاهله سجادة وبيمناه العكاز وبيسراه الإبريق، فيعلم البواب خديم الزاوية بمكانه فيخرج إليه ويسأله من أي البلاد أتى، وبأي الزوايا نزل في طريقه ومن شيخه، فإذا عرف صحة قوله أدخله الزاوية وفرش له السجادة في موضع يليق به، وأراه موضع

الطهارة فيجدد الوضوء، ويأتي إلى سجادته فيصلي وسطه، ويصلي ركعتين، ويصافح الشيخ ومن حضر ويقعد معهم" (ابن بطوطة، د ت).

ويصف نظام معيشتهم فيقول: إن خادم الزاوية يجيء كل صباح فيسأل كل واحد من أهلها عما يشتهيه من الطعام، فإذا اجتمعوا للأكل كان لكل واحد منهم خبزه ومرقه وطعامه الذي اختاره في إناء خاص، يخرج هذا الطعام مرتين في اليوم، وتخرج لهم كسوتان للشتاء وللصيف في كل عام، وراتب شهري بين 20 و30 درهم، وفي ليلة الجمعة من كل أسبوع تصرف لهم الحلوى والصابون والزيت ونفقة لدخول الحمام، والمتزوجون من هؤلاء الفقراء تخصص لهم زوايا على حدة، ويجتمعون كلهم في الصلوات الخمس، يجلس كل واحد منهم على سجادته، وبعد صلاة الصبح يقرأون أجزاء من القرآن ومثل ذلك بعد صلاة العصر، وفي يوم الجمعة يحمل خادم الزاوية سجاداتهم كلها إلى المسجد ثم يخرجون إليه مجتمعين ومعهم شيخهم، ويجلس كل واحد على سجادته، وبعد الصلاة وقراءة القرآن يعودون مجتمعين كذلك (ابن بطوطة، د ت).

ولكثرة ما في الرحلة من أخبار المتصوفة وكراماتهم فإنها تقترب في بعض فصولها إلى كتب المناقب، وانطلاقا مما سبق يتبين أن ابن بطوطة عريق في التصوف، وأن رحلته كانت سياحية من قبيل السياحة الصوفية، وهذا ما جعلها مصدرا هاما لدراسة الأوضاع الاجتماعية وذلك عن طريق إشارتها إلى الروح الدينية المتصوفة، كما أنها صفحة من التاريخ الاجتماعي الإسلامي، ومصدر هام للتعريف بالعلماء والصلحاء ورجال التصوف في الشرق والغرب، واهتمام ابن بطوطة بهذا الجانب، وسع من آفاق الرحلة، وكان حافزا أساسيا على زيارة الكثير من الأماكن.

خاتمة

في الختام يمكن القول أن ابن بطوطة أمد المشتغلين بهذه الفترة من تاريخ مصر (8هـ/14م) بمعلومات قيمة على قلتها، وهي معلومات لا تمكن من صياغة تاريخ متتابع الحلقات ومكتمل الجوانب، ومع ذلك فإن أهميتها ترجع إلى شهادة صاحبها فهو معاين للأحداث وليس راويا لها فقط.

يمكن الاطمئنان على العموم لمعلومات ابن بطوطة بعد تجريدها من الصدف، وهي معلومات تصح لأنها ممكنة الوقوع في التاريخ وتنسجم مع مسبباتها، كما أنها لا تتناقض فيما بينها، ولأن مقابلتها مع باقي المصادر تضفي عليها مزيدا من المصداقية، فضلا عن ترجيح الدارسين تعديل ابن بطوطة بعض رواياته ومشاهداته، فهو تميز بالثقة والصدق في الأوصاف وكذا الحياد والموضوعية.

وترجمة رحلة ابن بطوطة كليا أو جزئيا إلى لغات عالمية كثيرة (شاهدي ، 40)، دليلا على اعتراف العالم بأهمية المعلومات الواردة فيها، واعتمادها كمصدر مهم يؤرخ للدول التي زارها.

رصدت رحلة ابن بطوطة الأوضاع السوسيو ثقافية بمصر، وهو مجال برع فيه الرحالة بشكل خاص لأنه ينسجم مع قناعته الفكرية وتكوينه الروحي، فغالبا ما كان الرحالة ينحاز للعلماء والمتصوفة في الأقطار التي زارها فيستفيد منهم ويأنس بصحبتهم، كما تميزت رحلته بالوصف الدقيق للأوضاع الاجتماعية مبرزا في الآن ذاته مختلف الفئات المكونة للمجتمع وعاداتهم وتقاليدهم.

ورغم كل الدراسات التي أنجزت حول رحلة ابن بطوطة فإن هناك موضوعات ومجالات واسعة لم يتم تناولها بما فيه الكفاية من البحث والتحليل، كما يجب إعادة النظر في بعض الكتابات الغربية والمشرقية المشوهة للرحلة والجارحة لشخصية الرحالة.

قائمة المصادر والمراجع

1. أبو القاسم الزياني. (1412هـ/ 1991م). الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا. الرباط: دار النشر المعرفة للنشر والتوزيع.

2. أبو عبد الله محمد ابن بطوطة. (د ت). رحلة ابن بطوطة. القاهرة: المكتبة التوفيقية.

إغناطيوس يوليانوفيتش كراتشكوفسكي. (1408هـ/ 1987م). تاريخ الأدب الجغرافي العربي. بيروت: دار الغرب الإسلامي.

3. الحسن الشاهدي. (1990م). أدب الرحلة بالمغرب في العصر المريني. الرباط: منشورات عكاظ.

4. الحسن شاهدي. (40). الموقف النقدي من ابن بطوطة ورحلته قديما وحديثا. مجلة دعوة الحق، صفحة 99.58.

5. العربي الحمدي. (1990م). أوضاع بلاد مصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية والفكرية من خلال رحلة ابن بطوطة. أعمال ندوة ابن بطوطة (صفحة 324.307). طنجة: منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

6. العوامري بك أحمد، و جاد المولى بك محمد أحمد. (1934م). مقدمة مهذب رحلة ابن بطوطة. القاهرة: المطبعة الأميرية بولاق.

7. زيادة نيقولا. (1962م). الجغرافيا والرحلات عند العرب. بيروت : الأهلية للنشر والتوزيع.

8. شهاب الدين أحمد المقري. (1388هـ/ 1968م). نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب. بيروت: دار صادر.

9. عبد السلام شقور. (1996). البعد الصوفي في حياة ابن بطوطة من خلال رحلته. أعمال ندوة ابن بطوطة (صفحة 337.325). طنجة: منشورات مدرسة الملك فهد العليا للترجمة.

10. عبد العزيز الضعيفي. (2004). علاقة العلماء المغاربة بنظرائهم المصريين بين الاستفادة والافادة نماذج من العصر المريني. مجلة التاريخ العربي، صفحة 402.383.

11. محمد الشرقاوي. (1968م). رحلة مع ابن بطوطة من طنجة إلى الصين والأندلس وإفريقيا. القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

12. محمد الفاسي. (1965م). مقدمة تحقيق الاكسير في فكاك الأسير لمحمد بن عثمان المكناسي. الرباط: المركز الجامعي للبحث العلمي مطبعة اكدال.

13. محمد حسين زكي. (1945م). الرحالة المسلمون في العصور الوسطى. مصر: دار المعارف.

14. منصورية ابن عبد الله ثالث. (2016-2017). صورة المرأة قي رحلة ابن بطوطة. تلمسان: جامعة أبي بكر بلقايد كلية العلوم الانسانية والاجتماعية.